

تأثير الدين في المدنية

أهمُّ المبادئ التي تسير عليها الأمم، وتعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة، المبادئ الدينية؛ وقد كانت على الدوام أهمَّ عنصر في حياة الأمم، وهي لذلك أهمُّ عنصر في تاريخها. فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها. وأولُّ المسائل الأساسية، في الأزمان الغابرة وفي الأزمان الحاضرة، المسائل الدينية. ولو ان الإنسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الأرض منذ ظهرت المدنيات الأولى لا ينبغي لنا أن ننسى أن جميع المنظمات السياسية والتديرات الاجتماعية قامت، منذ بداية التاريخ، على معتقدات دينية، وأن الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية، وأن الدين أسرع موثر في الاخلاق لا يدانيه موثر اللهمَّ الألب؛ والحب دين، إلا أنه دين ذاتي غير دائم. وإذا أردت ان تعرف على أي حال تكون الامة التي اهتماجها خيالها فانظر الى فتوحات العرب والحروب الصليبية والاضطهاد الانداسي وحال انكلترا أيام «الپوريتيين» و«سانت بارتلمي» في فرنسا وحروب الثورة الفرنسية. إلا أن للأوهام سحراً مستمراً شديداً التأثير يتغير به المزاج العقلي تغيراً كلياً. خلق الانسان الآلهة ولكنها ما لبثت ان استعبده. وانها بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها «لوقريس» لذلك كان تأثيرها سرمدياً. لقد كان من تأثيرها فيه أن جعلت عقله متشبهاً بفكرة السعادة فمتازت بذلك على كل موثر سواها، وقصرت الفلسفة عن ادراك هذه الغاية حتى الآن

نتيجة كل حضارة ان لم نقل غايتها، وكل فلسفة، وكل دين، تكوين حالات عقلية خاصة، بعضها يقتضي السعادة، وبعضها لا يقتضيها. وترجع السعادة

الى أحوال النفس أكثر مما ترجع الى الأحوال الخارجة عنها . فلربما كانت الضحايا فوق مواقدنا أسعد من قاتليها . وكم فالخ ارض يديه يقضم الكسرة مفروكةً بالتوم أسعدُ بكثيرٍ من موسر متدفق الثروة تكاثفت حوله المهوم

ومن دواعي الأسف أن الحضارة في هذا الزمان خلقت للانسان جمعاً من الحاجات ، ولم تعطه وسائل دفعها ، فتولد من ذلك عدم الرضاء في النفوس . قالوا الحضارة بنت الرقي . نعم وهي أم الاشتراكية وأم الفوضى . وهما صوتان مريعان تصيح بهما جموعٌ قلَّ ايمانها فاستولى اليأس على قلوبها . أين حال الأوروبي الذي تولاه القلق ، وهاجت اعصابه وأصبح غير راضٍ بحظه ، من حال الشرقي الراضي بما قدر له . انما الفرق بينهما في حالة النفس دون سواها . وانما يُغيّر الامة من يُغيّر من تصوّرها ، ويجعلها تفكر وتعمل غير ما عملت

يجب على الهیئة ان تسعى في ايجاد حال عقلية يكون فيها الفرد سعيداً والآ فأجل الامة قصير . فما قامت الأمم حتى الساعة الا متكئة على خيالٍ فيه قوة اجتذاب النفوس ، وما سقطت واحدة منها الا بزوال سلطان هذا الخيال

من اكبر خطأ هذا الزمان اعتقاد الناس ان النفس تجد السعادة في الاشياء الخارجة عنها . قل ان السعادة فينا ونحن الذين نوجدوها . وشذ ما كانت بعيدة عنا . انا هدمنا خيال العصر الماضي فصرنا نرى انه لا حياة لنا من بعد هذا الخيال ، وانا اذا لم نوفق الى الاستماضة عنه فإننا هالكون

اكبر المحسنين لبني الانسان الذين يجب على الأمم ان تُقيم لهم أنعم التماثيل من الذهب الوهاج ، هم اولئك السحرة القادرون الذين خفقوا لها الخيالات . اولئك يولدون احياناً بين البشر ، ولكنهم لا يولدون الا قليلاً . أقاموا امام سيول الآمال الفانية — وهي الحقائق التي لا قدرة للانسان على معرفة غيرها ، وفي وجه هذه الدنيا العيوس الجامدة — حجاباً من الأوهام القوية فسروا عن الانسانية ، وستروا ما في

الحياة من غضاضة ومَضَض ، وخلقوا جنات النعيم فنيطَ بها الرجاء وتوالت الاحلام
واذا رجعنا الى الجهة السياسية علمنا أيضاً كيف كان تأثيرُ المعتقداتِ شديداً .
والسببُ في قوة الدين العظيمة كونهُ العاملَ الوحيدَ الذي تتوحدُ بهِ وقتاً ما منافع
الأمة ومشاعرها وأفكارها . فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره من
العناصر التي يتكوّن منها روحُ الأمة والتي لا تنتج هذه النتيجة الا اذا أريت وتمّ
نضجها بالوراثة . نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلي بمجرد استيلاء دين على قلبها ؛ غير
انّ جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هي الانتصار للمعتقد الجديد ، وفي ذلك سرّ
قوتها العظمى . لذلك نجد ان قيام الأمم بأعظم الأعمال كان في عصر هذا التطور
الوقتي أعني عصرَ تديتها ، وتأسيس أكبر الممالك التي ادهشت العالم كان في عصر
تديتها . كذا انجذبت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فاستطاعوا
قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء . وشادوا تلك الدولة الكبرى
وعليه يتضح انه كان للدين شأن كبير في سياسة الأمم لأنه هو العامل الوحيد
سريع التأثير في أخلاقها . نعم ان الآلهة ليسوا خالدين ، ولكن المبدأ الديني باق
لا يزول . يعني زماناً ، ثم ينشط متى ظهر ربّ جديد . وهو الذي استطاعت بهِ
فرنسا وحدها منذ قرن ان تقاوم اوروبا كلها . فعرف البشر مرّة اخرى درجة تأثير
المعتقدات الدينية . لأن الافكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في
الحقيقة ذيناً جديداً نفخ في الأمة من روحه فأنعشها . لكن الآلهة التي برزت من
خلال تلك المعتقدات كانت لطيفة المادة فلم تدم الا قليلاً ؛ على ان سلطانها ، مدّة
وجودها ، كان سلطاناً كبيراً

بعد ذلك نقول ان قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة فانية . قلما تدوم
المعتقدات على قوتها الاولي زماناً يكفي لتغيير الخلق تغييراً تاماً . سببُ انّ قوة
الاحلام لا تلبث ان تقتر ويرجع المأخوذُ بسكرتها بعض الرجوع الى اليقظة فتظهر
حقيقة الخلق الصيق

يظهر على الدوام خلق الأمة حتى وساطان الدين في متهمي شدته فتراه في الصبغة التي انصبغ بها الدين عند الامة التي اعتنقه ، وفي المظاهر التي تنشأ عنه . انظر الى الفرق العظيم بين المعتقد الواحد في انكلترا واسبانيا وفرنسا نجد انه كان من المستحيل ظهور « البروتستنتية » في اسبانيا ارضى انكلترا باقامة الاضطهاد (محكمة التعذيب) بين ربوعها ؛ بل تأمل حال الأمم التي دانت بالبروتستنتية تظهر لك أخلاقها الأساسية الاولى بادية عليها ، وأنها بالرغم من افتاتها بمعتقداتها ، لا تزال محتفظة بميزات مزاجها العقلي ، اعني الاستقلال ومضاء الزينة وتدبير الامور قبل الأخذ بها وإباء الخنوع والاستدلال لسيد يصدر في امره عن الهوى يتولد تاريخ الأمم السياسي والادبي والفني من معتقداتها ؛ الا ان هذه كما تؤثر في الخلق تتأثر ايضاً به . ففاتيح حياة الامة خلقها ودينها . والاول دائم من حيث صفاته الاولى ، وعدم تغيره هو السبب في وحدة تاريخ كل امة واطراده . أما المعتقدات فقابلة للتغير . وتغيرها هو السبب في ان التاريخ يحكي كثيراً من الانقلابات في الامم .

اليوم تميل الامم القديمة الى السقوط . فهي تهتز من الوهن ، ونظاماتها تداعى واحداً إثر واحد . وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من ايمانها الذي قامت عليه حتى الآن . فاذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد . لأن التاريخ يدلنا على ان الأمم لا تحيا طويلاً بعد اختفاء معبوداتها ، وأن الحضارات التي جاءت مع تلك المعبودات تذهب بذهابها . ألا لا شيء أفل في التخريب من أثر معبود يموت

همد فحمى زغالول

وكيل نظارة الحقاينة